التمهيد للكتاب

تتوالى الأحداث لتفوق في تسارعها الجهد المبذول في كتاب ذكريات الأحداث الماضية، ولا بد أن تفي كلمات قليلة بقصد التقديم لهذا الكتاب الذي ينشر وسط ظروف سوداوية نوعاً ما.

إن روبرت هيل وهو المرشد والفيلسوف والصديق الذي استلهمت منه فكرة هذا الكتاب رحل عنا إلى الأبد. امتد العمر بروبرت ليرى قصتي كاملة، لكنه ترك نشر إطلاق هذه القصة لأشخاص آخرين. وتلك هي حالة معظم الرجال الذين يعدون أنفسهم روواداً أوائل، إذ كانت الثقة بالنفس إحدى سماته؛ فكان يقينه أن ما بذله من جهد في حياته سيستمر بعد وفاته، وبتميز لا يبهت بريقه. وكما ورثت أمورات من أمورات كذلك يرث جان من روبرت.. فهو يتولى قيادة دفة المركب المشهور الذي بني ليقاوم أمواج البحر العاتية. قال أثين في قصة (شخصية مينتور) لصديقه تليماكوس قبل ثلاثة آلاف عام خلت عبارة (الأبناء قلة) ويعني بها أن الأبناء الذين يبقون على منزلة ومكانة آبائهم هم قلة.. فالقليل من الأبناء يتفوقون على آبائهم. لم يكن بمقدورك أن تفشل في أن ترث بعضاً من دهاء أوديسكوس، ولهذا يراودني أمل في أنك ستحقق هدفك. بهذه العبارات أعرب عن تقديري لرجل عظيم جاءت وفاته المبكرة لتخلف لابنه فرصة إجهاض شمولية الحكم الذي نطق به مينتور.

إن الخسارة الأخرى التي حدثت كانت خسارة شخصية لا يمكنني التحدث عنها

دون شيء من المرارة. وصلتني البيانات الختامية لهذا الكتاب مع وصول برقية تسلمتها عندما كنت في بيروت تخبرني بوفاة زوجتي التي كانت على مدى ثلاث سنوات من وجودي في الجزيرة العربية بمثابة حلقة وصل مهمة بيني وبين الناشر، وذلك في سياق لا يمكن فصله عن مجريات التحضير والإعداد لهذه السيرة الذاتية. لا بد أن أحتفظ بتقديري لها وبثنائي على الدور الذي قامت به بصفتها شريكة حياتي على مدى سبع وأربعين عاماً، وذلك لأعرب عنه في مناسبة أخرى خاصة إذا قدر لي أن أكتب حلقة أخرى من قصة حياتي.

وأخيراً ومن أجل الجانب المشرق من المحنة التي ألمت بي أقول: بأنه ربما يتساءل القارئ عندما يصل إلى الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب عما حدث لي عندما عدت إلى المملكة العربية السعودية بعد أن قضيت ثمانية عشر شهراً في المنفى. أود القول هنا أنه تم استقبالي في بيت "سعود" وكأنني ابن عاد إلى منزله بعد أن غفر لي وتم الصفح عن كل الخلافات والنزاعات التي كانت سبباً في إبعادي. علاوة على ذلك، وجدت عند عودتي مؤشرات دلت على أنه خلال غيابي تم بذل الكثير من الجهد لوضع سفينة الدول على نصابها القويم رغماً عن عواصف الاضطرابات السياسية التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط. لكن لا يزال هناك الكثير من العمل الواجب إتمامه، لكن ما يسرني أن الإرادة موجودة، وهي كفيلة بأن توجه المسيرة نحو الإصلاح والبناء الحيويين. كانت مكانة الملك سعود نفسه قد تعاظمت ولم يعد بحاجة لشيء إلا لسواعد الرجال المخلصين في الدولة من أجل تعزيز الإنجازات التي تم تحقيقها. كان باستطاعة أمريكا وبريطانيا أن تسهما في ذلك الإعمار، لكن كان لا بد من أن يكون تعاونهما تعاوناً صادقاً وفيه الكثير من الإيثار وحب الغير. وكان لدى بريطانيا على وجه التحديد حساباً لم تصفه، وكان

لا بد من سداد ذلك الحساب قبل أن تصحو الأجواء.

استاء العرب -وهم محقون في استيائهم- من توجه القبضة الاستعمارية نحو ديارهم بغض النظر عن كون ذلك التحول تحولاً مؤقتاً. ولا بد أن يفهم الجميع بأنه في الوقت الذي كانت لا توجد فيه لدى العرب أية رغبة في جلب الشيوعية إلى أوطانهم نجد أنه كان لديهم من المشاكل الملحة التي تستحوذ على تفكيرهم أكثر من مشكلة الخطر القادم من الاعتداء الروسي عليهم. شكلت البريمي وإسرائيل والجزائر على التوالي مواطن قلق بالغ بالنسبة للسعودية. فلم يتوجب فقط قلع مثل هذه الأعشاب الضارة من الحقل التاريخي الذي ترعرعت فيه، بل كان من الضروري أيضاً أن لا يعاد نثر بذورها في أي بلد عربي آخر.

سيدرك قراء كتابي هذا وأولئك الذين يقرؤون كتباً أخرى لي بأنني افتقدت لفترة طويلة التطورات التي حدثت في المملكة العربية السعودية. وإنني لا أنوي الاعتذار عن الملاحظات والتعليقات التي صدرت عني وخاصة التي تتعلق بالماضي، ولكنني نادم على ما استوجب تلك الانتقادات. لكنني أتطلع إلى مستقبل يمكنني أن أكون فيه قادراً على الكتابة عن المملكة العربية السعودية بشكل متفائل وإيجابي، خاصة إذا تمت المحافظة على التوجهات الحالية، تماماً كما كتبت في الماضي القريب عن السعوديين في الجزيرة العربية خلال فترة الحكم العظيمة لابن سعود.

وأود أن أقول لابنه الذي أتقدم له بأخلص الأمنيات: أنه مثلما كان مقدراً بالنسبة لتليماكوس فإنه يساورني أمل كبير بأنك ستحقق مأربك وتحظى بما تنشده.

جون. ب. فيلبي

لندن - اليوم الثاني من شهر يولية (تموز) من عام ١٩٥٧م